

جماعات الأطفال

بقلم ماهر كامل

مدرس الفلسفة بمدرسة المنصورة الثانوية

لا يكون الأطفال في السنتين الأوليين جماعات بالمعنى الصحيح للكلمة لأن الحياة مع آخرين تتطلب مراناً ودرجة من النمو وخبرة خاصة ، وبدون هذه الخبرة يكون من الصعب على الطفل أن يخضع للقوانين الاجتماعية التي تفرضها الجماعة .
وتختلف جماعات الأطفال باختلاف مراحل نموهم . بل إن مفهوم كلمة « نحن » تختلف في ذهن الطفل حسب درجة نموه إذ أنها ترمز في كل مرحلة من مراحل النمو إلى عدد الجماعة التي يتحد الفرد معها ونوع هذه الجماعة وأغراضها .
ففي المرحلة من ٣ — ٥ سنوات يطلق الطفل كلمة « نحن » على أفراد الأسرة .
وفي المرحلة من ٥ — ٧ تستخدم كلمة نحن على « أنا وطفل آخر » أو على الأكثر في بعض الظروف على ثلاثة أفراد . وكلما نما الطفل تطلق كلمة « نحن » على عدد أكبر من الأفراد الذين يلعب معهم . فعند طفل الحادية عشرة تطلق كلمة « نحن » على جماعة من ستة أو ثمانية أفراد من جنس واحد « ذكور أو إناث » وسن متقاربة في حين تطلق كلمة « هم » على العصابة أو الجماعة المنافسة . وعند الكبار يقصد بكلمة « نحن » كل جماعة ينتمون إلى عمل متشابه أو ينتمون إلى دراسات واحدة .
من هذا يتبين لنا أن تكوين الجماعات إنما يتوقف على درجة النمو الاجتماعي ولهذا ينبغي علينا أن نتابع التطور الاجتماعي للأطفال حتى نقف على نظام الجماعات وتطورها .

اتفق جميع العلماء الملاحظين أن الطفل في الشهر الأول من عمره لا يمكن اعتباره حيواناً اجتماعياً اللهم إلا بالقوة Potentially ثم يبدأ الاتصال الاجتماعي تدريجاً . ففي السنة الأولى نلاحظ على الطفل نوعين من السلوك الاجتماعي

هما : (١) لذة مرافقة الآخرين . (٢) محاولة ترمي إلى استمرار الاتصال الاجتماعي .
فلذة الطفل من مصاحبة مجتمع من الكبار لا يظهر من سلوكه الاجتماعي عند الضحك أو الابتسام فحسب بل أيضاً من طريقته التي تمثل فرض نفسه عليهم . ونستطيع أن نتبين هذا الشعور في وضوح إذا حاولنا أن نحول بين الطفل وبين هذا الاتصال الاجتماعي فسرعان ما تجده يصرخ ويلج في قوة وفي غضب ظاهر . وحتى إذا كان الطفل في بدء مرحلة النوم نجده يستيقظ ويصرخ ويأتي ببعض الحركات الجسمية الانفعالية بالرغم من أن كل أسباب الراحة تكون متوفرة لديه ما عدا هذا الاتصال الاجتماعي أو المرافقة . وثبت التجارب أن الأفضل في هذه الحالة أن يترك الطفل يصرخ كيفما شاء حتى يعلم أن هذه طريقة فاسدة لا تؤدي به للحصول على ما يريد ذلك أن الطفل إذ يصرخ إنما هو يجرب ويختبر . وإذا فهو لن يتأذى في هذه التجربة إذا ما عولجت بعناية من الكبار . أما إذا تكونت لدى الطفل عادة الصراخ للمرافقة فذلك يرجع إلى عدم العناية بترتيبه .

ويلاحظ أنه في سن أربعة أو خمسة أشهر لا يوجد أي تداخل بين الأطفال بعضهم البعض ولا يهتم الواحد بالآخر البتة حتى لو وضعوا في أماكن متجاورة جنباً لجنب . وأقصى ما يحدث منهم هو أنهم ينظرون إلى بعضهم البعض أو يبتسمون في فترات قصيرة متراوحة . ولكن لا يحاول أحدهم أن يقوم بالمقدمات اللازمة لقيام علاقة اجتماعية وثيقة . وعلى العموم في أثناء السنة الأولى كلها تكون معظم علاقات الطفل الاجتماعية مع الكبار . . . على أنه عند نهاية السنة الأولى تظهر بعض اتصالات وتكيفات بين الأطفال بعضهم وبعض .

وتلفت شارلوت بولر Ch. Bühler نظرنا إلى أن هناك فرقاً كبيراً بين طفلين يلعب كل منهما منفرداً رغم أنهما جنباً لجنب وبين طفلين يلعبان سوياً بمعنى الكلمة فالحالة الأخيرة وحدها تمثل نشأة الميول الاجتماعية . كما أنه يجب أن نفرق بين هذين السلوكين وبين سلوك طفلين يعملان نحو تحقيق قصد أو غاية مشتركة ويؤثر كل منهما الآخر وبينهما تفاهم متبادل وتنظيم للتداخل وليس مجرد اشتراك في اللعب

واشتراك في النتائج . وليس لدى الأطفال الذين هم في السنة الأولى من عمرهم مثل هذه الصلات الاجتماعية المعقدة . وإنما هي علاقات قصيرة المدى ، وعلى أى حال فهي تلتقي ضوءاً على نشأة جماعات الأطفال .

وفي المؤتمر الدولي التاسع لعلم النفس الذى عقد في جامعة ييل (Yale) سنة ١٩٢٩ قسمت شارلوت بولر Charlotte Bühler السلوك الاجتماعى للأطفال في أواخر السنة الأولى إلى ثلاثة أنواع من الاتجاهات يمكن اعتبارها كمميزات وصفات عامة للشخصية .

(١) الطفل الأعمى الاجتماعى : وهذا الطفل لا يابه لوجود طفل أو أطفال آخرين معه ويتصرف في وجودهم كما لو كان بمفرده ولا يظهر أى انفعال أو انتباه إلى حركات الآخرين .

(٢) الطفل المعتمد على المجتمع : وهو على عكس الطفل السابق يتأثر كل التأثير بوجود الآخرين في بيئته ونشاطهم . . . وهو إما أن يخاف من الطفل الآخر فيحاكيه ويطيعه ، وإما أن يضايق الطفل الآخر ويأخذ اللعبة التي في يده وهو يبتسم ابتسامة المنتصر حينما يتغلب عليه أو يغضب ويحقد إذا انتصر عليه الآخر .

(٣) الطفل المستقل عن المجتمع : وهذا الاتجاه يختلف عن الاتجاهين السابقين فهذا ولو أنه شاعر بوجود الآخرين إلى أنه ليس معتمداً عليهم فهو لا يخاف وجودهم ولا يهابهم ولكنه مع ذلك لا يمانع في أن يشترك مع طفل آخر إذا اقتضى الحال وقد يعاون الطفل الآخر ويواسيه ويشجعه ولكنه مع ذلك يبقى مستقلاً في حركاته وأكرّر أننا إذا ما تحدثنا عن السلوك الاجتماعى للطفل في السنة الأولى من الحياة فإنما نعى أن العلاقات بين الأطفال في هذه السن تكون قصيرة المدى جداً ونادرة الحدوث وتقتصر على فردين فقط . فإذا ما اجتمع عدة أطفال للعب فإن العلاقات والصلات لا تظهر بينهم جميعاً على أنهم جماعة بمعنى الكلمة ، بل بين عدة مجموعات صغيرة من الأطفال وكل مجموعة منها تتكون من طفلين . وحتى في هذه الحالة فإننا نجد أن كل طفل إنما يوجه نشاطه نحو تحقيق غايات خاصة أكثر منها

غايات اجتماعيه . وقد نجد لدى الطفل استهواء عكسياً أكثر منه قابلية واستهواء لآراء الآخرين ... كما أنه لا يقبل أن يتدخل أحد في عمله أو بينه وبين طفل آخر بل يقاوم هذا التدخل ولذا فاعب الأطفال يغلب عليه المنافسة .

ولو انتقلنا إلى دراسة جماعات الأطفال الذين يبلغون من العمر سنتين نجد أنه حينما يلتقي الطفل بالأطفال الآخرين — بمدارس الحضانة مثلاً — فإنه لا يظهر إلا ميلاً بسيطاً ولكنه يقف من بعد يتأمل الأطفال الآخرين ويحلق فيهم تماماً كما يفعل نحو الأشياء المادية التي تحيط به . ويكون على استعداد للمب مع الكبار أكثر منه مع الصغار ، وبالتدريج يبدأ في اللعب بالأدوات بمفرده وينظر إلى الآخرين بين الغيبة والغبية . . . وما هي إلا أيام قليلة حتى يستجيب لطفل آخر ويحاذيه ويتسمم ويضحك استجابة للطفل الآخر . . وأخيراً يبدأ الضحك بنفسه — وإذا بالطفل بعد أن يبتعد إذا ما حاول طفل أن يتخذ منه صاحباً نجده يتسمم ويمد يده إلى الطفل الآخر ليسيراً يداً في يد .

والطفل في بدء اتصاله بالجماعة سلبي بمعنى أنه يعتمد على غيره في حماية نفسه وحماية لعبه وأدواته ، فإذا ما اعتدى عليه طفل آخر فإنه يبكي ويصرخ مستعيناً في ذلك بالكبار . وقد يبدأ الطفل سلوكه الإيجابي نحو الجماعة بأن يضرب طفلاً آخر وينتظر ليرى ماذا يحدث . فيكأنه يقوم بتجارب ليتعرف البيئة والجمتمع الذي يحيطه ويقف على ما يجب عليه أن يفعله وما يجب عليه أن لا يفعله فهو يحاول أن يضبط سلوكه حسب قوانين السلطة المحيطة به .

وعلى العموم فإنه ليس من السهل أن نحدد سلوك الأطفال نحو الجماعة في هذه المرحلة إذ أن سلوكهم يتوقف على تجاربهم الاجتماعية السابقة في المنزل . فقد يصدر نفس هذا السلوك من الأطفال الجدد — في مدرسة الحضانة — الذين في سن الثالثة والنصف أو الرابعة إذا كانوا لم يسبق لهم اللعب مع جماعات من الأطفال في منازلهم من قبل .

وقد يتصرف الطفل إزاء طفل آخر بأن يتلمسه في رفق ولين أو يدفعه على الأرض

أو ينفذه برجله ولكن سرعان ما يعرف أن السلوك الجاف غير مرغوب فيه فيحاول أن يحقق حاجاته بأساليب مقبولة أكثر من المجتمع . وكما ارتقى ميل الطفل نحو الجماعة حاول أن يكتسب رضاهم وتقديرهم فنجد أنه يبذل جهده في مساعدة طفل آخر أو يحاول أن يجعله يشعر بالأمان وعدم الخوف إذا بقي منفرداً ، بل يحاول أن يدخل السرور إلى قلب الآخرين . والأطفال الذين هم في سن الثالثة والرابعة يجدون لذة في ملاحظة سلوك الآخرين ليمينوا لهم أخطاءهم رغبة منهم في إرضاء الكبار . كما أنهم يظهرون تقديرهم للأطفال الآخرين إذا قاموا بأعمال تسترعى استحسانهم وكثيراً ما نجد الأطفال في سن الرابعة يحمون حقوق الآخرين أو يمنعون أحد الأطفال من أن يأخذ ممتلكات طفل آخر . وأطفال هذا السن يلعبون غالباً في جماعات أكثر مما يفعل الصغار ومن النادر أن يلعبوا منفردين .

وهناك عقبة كأداء تحول دون تنظيم علاقات الطفل بالجماعة وهي أن التغيير الانفعالي في السنوات الأولى من حياته سريع جداً ومدى انتباهه قصير ومتذبذب فالطفل الذي في المرحلة من سنتين إلى خمس سنوات وإن تمسك بالتعاون في القيام بالعمل المشترك لا يلبث بداعي ضعف قدرته على تركيز الانتباه أن يلتفت إلى شيء آخر لأن انتباهه غالباً ما يكون قسرياً . فبدون التأثير الخارجي المستمر على الطفل قد ينسى الطفل نفسه ولا يحافظ على غرض الجماعة وغايتها ويقضي أغلب وقته في القيام بدور المتفرج أو أن يسير وراء غاية أخرى قد تتعارض مع غايات الجماعة . ويأخذ ثبات انتباه الأطفال في الازدياد في سن الرابعة والخامسة وهذا الثبات هو الذي يمنح الاشتراك الفعلي في حياة الجماعة قيمته العملية المطلوبة .

وفي جماعات الأطفال يكون لكل فرد مكانة خاصة وموقف خاص . ولعل رفقاء الطفل هم الذين يستطيعون تقدير أهميته لا من وجهة قدراته الخاصة فحسب بل أيضاً من جهة أهميته العملية للجماعة ككل .

ويبدو هذا التقدير الاجتماعي لأفراد الجماعة بوضوح في المرحلة التالية ابتداء من سن السادسة فصاعداً فمن المشاهد أنه في كل فصل مدرسي أو فرقة لعب حيث تعود

الأطفال أن يلعبوا ويعملوا معاً ينشأ بالتدريج نظام للطبقات الاجتماعية يقبله الجميع وهذا النظام يظهر مركز كل طفل بين أقرانه ومدى قدرته على مساعدة الجميع .
وإذا انتقلنا إلى دراسة المرحلة التالية نجد أن جوزيف لي Joseph Lee يطلق عليها إسم The Big Injun Age وقد وصفت هذه المرحلة في كتاب Norsworthy & Whitley بأنها مرحلة عصابات الأطفال .

وفي السنوات الأولى من هذه المرحلة التي تبدأ من سن السابعة أو الثامنة نجد أن عصابات الأطفال غير منظمة وغير مقصودة فالأطفال يجتمعون أثناء لعبهم في المدارس أو الشوارع والأزقة ويكون عدد الجماعة حول الستة أو أكثر .

ويقسم تراشر Thrasher عصابات الطفولة بحسب تكوينها الاجتماعي إلى مهوشة ومتأسكة وسرية وعرفية وإجرامية .

١ — فالنوع المهوش هو الطبيعي والغالب في عصابات الأطفال وهذا النوع بسيط جداً في نشاطه كما وأن إخلاص أفراداه إلى بعضهم ليس بالقوى أو المستمر ويربطها التقليد وحب الظهور والمنافسة .

ب — أما النوع المتأسك فهو أرقى من النوع السابق ويربط أفراداه غالباً الميل إلى المخاطرة . ويتصف أفراد العصابات المتأسكة بالأمانة لبعضهم البعض ويقتسم أفرادها المال والمخاطر ... الخ .

ح — والنوع السرى يقلد الأطفال فيه جمعيات البالغين حيث تقسم المهام على الأفراد ويصطلحون فيما بينهم على لغة سرية خاصة ويسيطرون على قوانين يتوضعون عليها ... الخ وكلما اصطبغت الجماعة بصبغة الغموض الذى يستدعى الانفعال شعرت الجماعة بقوتها .

د — والنوع العرفى لا يوجد إلا بين الأطفال الكبار من سن ١٦ — ١٨ ويطلق عليه هذا الإسم لأن المجتمع والعرف يقبله وتتكون هذه الجماعات رسمياً لغرض الألعاب الرياضية أو السياسة ... الخ .

هـ — أما النوع الإجرامى فيتكون من شبان لم يتكونوا تسكويماً اجتماعياً صالحاً وانحدروا فى تيارات الرذيلة والإجرام .

أما من حيث سيكولوجية العصبية فإن الجمعيات المتحدة فى السن والجنس سواء أكانت مفككة أم مترابطة فإنها مهمة وضرورية للأطفال فى المرحلة بين سن الطفولة التى يعتمد فيها الطفل على والديه وبين الاستعداد للاستقلال والتزاوج وتكوين عائلات . فمن طريق هذه العصابات يتعلم الأطفال الاستقلال ويفهمون الديمقراطية فهماً عملياً ، كما يتقيدون بمستويات معينة تحدد سلوكهم كالعادل والملكية والمهارة الجسمية والمثل العليا فى الكرم والاقتصاد والشجاعة والشرف والأمانة . وبذلك تقوم الشخصيات ولو فى شكل بدائى إذ أن الولد المشاكس أو اللئيم أو المنافق أو الجبان . . . الخ سرعان ما يجد نفسه غير مرغوب فيه ومطروداً من العصبية وهكذا تضطره العصبية إلى أن يتعلم كيف يضبط نفسه وكيف يلائم بين حاجاته وحاجات المجتمع .

ووجود العصابات إنما يحتم وجود مواقف مثيرة سواء أكانت على صورة مباريات ومخاطر مشروعة أم كانت مشاكسة للناس ومخاطر غير مشروعة . وتعتمد هذه المواقف المثيرة على الفرص التى تسمح بها البيئة والدرجة التى وصلت إليها الجماعة من الرقى الاجتماعى وتربطها مع الجمعيات الأخرى كما تتوقف أيضاً على الرغبات الوقتية لأعضاء الجماعة وقد يلجأ أفراد العصابات فى بعض الأحيان لإشباع خيالهم إلى التمثيل أو إجراء مباريات رياضية منظمة لسكرة القدم كما أنهم يعملون على أن يكون لهم مكان معين يعتبرونه خاصاً بالجماعة حتى ولو كان هذا المكان ركناً فى شارع أو حارة كما أنهم ينتخبون اسماً للعصبية مما يقوى شعورهم بأنفسهم ويكون هذا الاسم غالباً مشتقاً من البيئة أو ممثلاً لقوة أو ساطة كبيرة لها شهرتها كعصابة اليد السوداء أو قلب الأسد أو الزنبقة القرمزية . كما قد يتخذ أعضاء العصابة رمزاً أو شارة تمثلهم ويعتزون بها .

أما عن البنات فإنهن لا يندجن فى فى الحياة الاجتماعية بدرجة الأولاد وسواء

أكان ذلك يرجع إلى التكوين الفسيولوجي للبنت أو إلى التقاليد الاجتماعية التي تقيد الفتاة وتمنعها عن الخروج كثيراً فإن النشاط الاجتماعي للفتاة أقل بكثير جداً منه في حالة الصبية وكذلك من الصعب خلق روح الجماعة حتى في الجمعيات المنظمة التي تكونها البنات فالبنت تميل إلى الاستقلال عن الجماعة كما تشهد بذلك دراسات Margaret Mead ويبدو استقلال البنت واضحاً في ميلها إلى الأعمال الانفرادية كالرسم والحياسة . وحتى في لعبهن نظ الحبل أو « الحجلة » فإنهن لا يخرطن في شكل فرق منظمة بل في شكل ألعاب فردية وبينما ينغمز الأولاد في حياة الجماعات أو العصابات تميل البنات إلى أن يكن أفراداً كل واحدة مستقلة بنفسها وهن لا يقبلن النقد ويستحيل عليهن أن يعملن تحت قيادة من يكرهن حتى ولو كان ذلك لصالح الجماعة . . . كل هذه العوامل تمنع من تكون العصبة المتماسكة وتكون سبباً في فشل النوادي أو الجمعيات التي تقوم في سن البلوغ عند البنات .

من كل ما تقدم يتبين أن تطور رقي الجماعة كثير الشبه بتطور الفرد . فكأن الفرد في صغره يحاول أن يثبت ذاته بأن يفرض نفسه على الآخرين عن طريق التعدي والهجوم في أغلب الأحيان ، كذلك نجد أن الجماعة في نشأتها تبدأ بالنضال والمنازعات ضد جماعات الأطفال الأخرى لإثبات ذاتها ولكن هذه المرحلة بدون شك بدائية ينبغي أن تتطور إلى مرحلة التعاون كما نرى عند فرق الكشفاء فبالرغم من أن كل قسم من الأقسام ينافس الأقسام الأخرى ويحاول التفوق عليها إلا أنه يتعاون مع الأقسام الأخرى في تحقيق الغرض العام للجماعات الكشفاء . وهذا التعاون في سبيل تحقيق الغرض المجرد العام هو دليل على النضج الاجتماعي للجماعة فمن الممكن الحكم على درجة نضوج الجماعة من مدى عزلتها عن الجماعات الأخرى أو تعاونها معها .

Résumé.

MAHER KAMEL : Les sociétés d'enfants.

Etude de la conduite sociale de l'enfant depuis ses premières ébauches au cours de la première année jusqu'à l'âge prépubère où les enfants aiment à s'organiser en bandes.